٢٦ ـ المصريون المحدثون
شمـــائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الثامن ـ عادات المجتمع العامة

للطبقة المهذبة تحيات وتهنئات أخرى متكلفة تتبع السلام. كما أن هناك عبارات خاصة للرد على أكثرها أو عبارتين أو أكثر قد تستعملان في بعض الأحوال. غير أن الرد الذي لم تلزمه العادة قد يعتبر دليلاً على الجهل أو الخساسة. وعند ما يسأل رجل صديقه «كيف صحتك»[1] يجيبه الآخر «الحمد لله» ويستدل المستفهم باللهجة التي يرد بها الآخر إذا كان صديقه معافى أو مريضاً، وعند ما يقول الواحد للآخر «طيبين» يجيب الآخر عادة «الله يبارك فيك» أو «الله يسلمك»، وعند ما يتقابل صديقان لم يلتقيا عدة أيام أو وقتاً طويلاً يقول أحدهما بعد السلام «أوحشتنا» فيجيبه الآخر: «الله لا يوحشنا منك». وقد يشغل ذكر التهنئات الفخمة التي يستعملها المصريون عادة صفحات من هذا الكتاب

ولا يدخل الرجل منزل غيره بدون استئذان لأن القرآن حرم ذلك صراحة[1]، وعلى الأخص إذا كان يريد أن يصعد الى إحدى الغرف العليا، فلا بد في هذه الحالة أن يصيح طالباً الإذن، أو يعلن قدومه عند ما يصعد السلم بالطريقة التي وصفتها سابقاً. وإذا لم يجد أحداً أسفل المنزل يصفق بيديه عند الباب أو في الفناء وينتظر نزول الخادم إليه أو الإذن له بالجلوس في حجرة سفلى أو بالصعود إلى غرفة عليا. ثم يحيي رب الدار عند ما يدخل الغرفة التي يجلس فيها، فيرد عليه رب الدار ويرحب به بأدب وبشاشة. ويقف رب الدار لمن كان أعظم منه[2] ولأقرانه على العموم، ويتقدم لاستقبال من هم أعلى منه مركزاً إلى الفناء أو بين الفناء وغرفة الاستقبال، أو في مدخل الغرفة أو وسطها، أو على بعد خطوة من مكان جلوسه. وكثيراً ما يكتفي عند استقبال أقرانه بأن يتحرك حركة خفيفة كما لو كان يهم بالوقوف. ولا يتحرك لمن دونه مقاماً. ويقدم رب الدار إلى الرفيع القدر وإلى أقرانه غالباً أفضل مكان في ركن من الديوان على يمين من

(١) «إيش حالكم»

(١) سورة النور آية ٢٧

(٢) أي لمن فاقه في المكانة أو الغنى أو في الشهرة الدينية أو الأدبية

فهذا النوع حيوان نباتي لأن جسمه ينبت كما ينبت بعض النبات، ويقوم على ساقه. ولما كان جسمه يتحرك حركة اختيارية كان حيواناً. (أما رتبة الحيوانية مما يلي رتبة الإنسان فليست من وجه واحد، ولكن من عدة وجوه، فمنها ما قارب رتبة الإنسان بصورة جسده كالقرد، ومنها ما قاربها بالأخلاق النفسانية كالفرس في كثير من أخلاقه، ومنها كالطائر الإنساني أيضاً، ومثل الفيل في ذكائه، وكالببغاء والهزار ونحوهما، ومنها النحل اللطيف الصنائع ... إلى ما شاكل هذه الأجناس. فهذه الحيوانات في آخر مرتبة الحيوان مما يلي رتبة الإنسان لما يظهر فيها من الفضائل الإنسانية[1])

ولا شك أن هذه النظرية بعيدة كل البعد عن مذهب النشوء والارتقاء الحديث، إذ جعلوا الفيل والنحل والطائر قريبة الشبه بالإنسان وفي أعلى مراتب الحيوان. ولعلنا إذا أخذنا رأيهم من الناحية العضوية البيولوجية توجد عندنا شبهة للقول بمذهب النشوء، فالحازون حيوان نباتي، والقرد قريب للانسان جسمياً. ولكن حتى مع هذا لم يقل إخوان الصفا بأن الإنسان هو والقرد متفرعان من أرومة واحدة. وهم يعتقدون أن النبات متقدم في الوجود على الحيوان لأنه غذاء له، والحيوان متقدم على الإنسان لأن وجوده لخدمته ومنفعته[1]

(يتبع)

عمر الدسوقي
مدير كلية المقاصد الاسلامية ببيروت

(١) الرسائل ج ٢ ص ١٤٤

(١) رسائل ج ٢ ص ٦٥٥

يواجه « صدر » الغرفة أى طرفها الأعلى ، ويعتبر المجلس الممتد بطول « الصدر » أكثر إجلالاً من المجلسين الممتدين على الجانبين ، ويسمي كل منهما « جنيبا » ، ولا يجلس من هم دون رب الدار فى الصدر أبداً إلا إذا دعاهم إلى ذلك . وكثيراً ما يرفضون هذا الشرف . ويجلس أقران رب الدار واضعين رجلاً على رجل ، أو رافعين ركبتهم ومستندين على المساند . وكثيراً ما يجلس بين دونه ، بادئ الأمر على الأقل ، على أعقابهم أو على حافة الديوان أو على الحصير أو البساط إذا كان فرق المكانة بينهما كبيراً . وتقتضى دقة الآداب ألا يظهر الزائر يديه عند دخول الغرفة أو عند الجلوس ، ويجب أن يسبل كيه عليهما ، وألا يمد رجليه عند ما يجلس على الديوان ، وألا يترك قدميه مكشوفتين ، ولكن هذه القواعد لا تراعى إلا فى منازل العظماء . وتردد التهانى والتحيات بعد السلام وعلى الأخص عبارتا « طيبين » و « إيش حالكم » مرات عديدة أثناء المحادثة

وقد يقوم أحياناً خادم الزائر نفسه بتقديم الشبك ، فيخرج السيد كيس التبغ من عبه ويناوله الخادم الذى يملأ الشبك منه ثم يطويه ويعيده بعد ذلك أو عند انتهاء الزيارة . وفى غير هذه الحالة يقدم خادم المضيف شبكا إلى الزائر وآخر إلى سيده ثم يناول القهوة[1] لأن التدخين بدون قهوة كالطعام بلا ملح ، كما يقول العرب . ويحيي الزائر رب الدار عند ما يتناول الشبك والقهوة بالتحية فيردها الأخير إليه ، وكذلك الأمر عند ما يعيد الفنجان إلى الخادم ، كما أن رب الدار يحيي ضيفه بالطريقة نفسها إذا لم يكن الفرق بينهما كبيراً . وكثيراً ما يلبث الخدم فى الغرفة مدة الزيارة واقفين باحترام عند طرق الغرفة الأسفل ضامين اليدين (اليسرى فى اليمنى) فوق الحزام ، وينادى على الخدم عادة بالتصفيق بأصابع اليمنى على راحة اليسرى ، ويسمع صوت التصفيق فى المنزل لأن النوافذ من الخشب المشبك . ويدور الحديث على الأخبار اليومية وحال التجارة وأسعار المؤن ، والدين والعلوم أحياناً ، وتروى الحكايات الفكاهية . ويحدث كثيراً أن تسرد القصص والأمثال البذيئة فى غير المجتمعات . وقلما يتحدث الناس فى المجتمعات الطيبة عن نسائهم ، ولكن كثيراً ما يفعل ذلك الأصدقاء الخلص ومن لا يراعى دقة قواعد الأدب بطريقة لا تكون لطيفة دائماً . ويستفسر المهذبون كل عن (منزل) الآخر للاطمئنان على الزوجة والعائلة . وكثيراً ما تشغل الزيارات وقتاً طويلاً ، وقد تستمر أحياناً طول اليوم وعلى الأخص زيارات الحريم . ويتكرر حشو الشبك أو تبدل بغيرها كلما اقتضت الضرورة ذلك لأن الزائر لا ينقطع عن التدخين مدة بقائه . ويعاد تقديم القهوة والأشربة أحياناً . وقد سبق وصف طريقة تقديم القهوة والأشربة . وتقدم النهانى نفسها إلى الزائر بعد الشراب كما تقدم كذلك بعد جرعة ماء[1]

وجرت العادة فى منازل الأثرياء أن يرش الضيوف قبل انصرافهم بماء الورد وماء الزهر ، وطيبون ببخور بعض المواد العطرية . وقد أصبحت هذه العادة غير شائعة فى السنوات الأخيرة . وتكون قارورة العطر المسماة (قمقم) من الفضة الساذجة أو المذهبة ، أو من النحاس الدقيق أو من الفخار الصينى أو من الزجاج ولها غطاء به ثقب صغير . أما أداة البخور المسماة (مبخرة) فتكون من أحد المعادن المذكورة ويجهز وعاء الجمر بالجص أو يملأ نصفه ، وبغطائه عدة ثقوب لصعود الدخان

(شكل ٥١) القمقم والمبخرة

(أنظر شكل رقم ٥١) . وتستعمل المبخرة بعد القمقم . ويقدمها الخادم إلى الزائر أو السيد فيجول البخور نحو وجهه ولحيته الخ ، بيمناه . وتفتح المبخرة أحياناً لإرسال البخور بلا عائق . وأكثر المواد استعمالاً : العود والجاوى وقشر العنبر . ويمثل الخشب

(١) ويتناول الزائر الشبك والقهوة قبل رب الدار إذا كان عظيما أو لا يقل مركزه كثيراً

(١) أنظر الفصل الخامس

العطرى قبل أن يوضع على الجمر . ويستعمل العنبر للغرض نفسه ولكن يندر استعماله إلا فى منازل الأثرياء لغلو ثمنه . وينصرف الزائر بعد أن يُعطَّر ؛ ولكنه لا يخرج قبل أن يستأذن ثم يقرأ السلام ويقدم غير ذلك من التحيات والتمنيات التى يرد عليها رداً موافقاً . ويجب على رب الدار إذا كان الزائر يفضله مركزاً ألا يقوم له فحسب ، بل يرافقه إلى أعلى السلم أو إلى باب الغرفة ثم يودعه فى أمان الله

ومن المعتاد أن يعطى الزائر قبل انصرافه من الزيارات العظيمة هدية صغيرة قرشين أو ثلاثة قروش أو أكثر حسب الظروف ، إلى أحد الخدم أو بعضهم . ويرافق الزائرَ أحد الخدم إذا كان مطيته على الباب أو فى الفناء ليساعده على الركوب ، وينتظر هذا الخادم الحسن الالتفات — على الأخص — عطيةً ، وعندما يعطى الزائر الخدم نقوداً فعلى السيد أن يرد المثل تماماً عند رده الزيارة .

وكثيراً ما يتبادل الأصدقاء الهدايا تبعاً للعادة العامة ، ويقدم الأصدقاء الهدايا عند أى حفل خاص ، والقاعدة العامة أن يرد إلى مقدم الهدية واحدة مماثلة أو فى قيمتها عند مناسبة مماثلة . والشائع أن يعبر المهدى إليه فى مثل هذا الحفل عن رجائه استطاعة رد الهدية فى مناسبة مشابهة ، ويعتبر هذا الشكر المصحوب بالإشارة إلى وفاء دين الهدية أدباً وتلطفاً فى هذا البلد وإن كان الأوربى الكريم يراه إهانة له . وتُلفّ الهدية فى منديل مطرز يعاد إلى الرسول مع منحة مالية صغيرة . ومن الهدايا الشائعة الفاكهة تقدم على أوراق الشجر ، والحلوى فى طبق أو على صينية تغطى بمنديل ثمين أو بمفرش . وكثيراً ما تقدم الهدية إلى العظيم لأجل الحصول على هدية أثمن ، ويفعل هذا غالباً الخادم . وقلما يرفض السيد الهدية ، ولكنه يدفع فى الحال نقوداً تفوق قيمتها . وليست عادة منح الخدم منحة بعد الزيارة شائعة الآن كما كانت منذ بضع سنوات . إلا أنه لا يزال أغلب الناس يراعون ذلك فى الزيارات الكبيرة وعلى الأخص فى العيدين ، كما يراعى ذلك المدعوون إلى الحفلات الخاصة ؛ وسنصف عادات أخرى مثل العادات الأولى يراعيها المصريون فى هذه الحفلات فى الفصل السابع والعشرين ويعتبر رفض الهدية إهانة لمقدمها ، وتعبيراً عن زوال الحظوة

وهناك عادات كثيرة يراعيها المصريون ، لا فى الزيارات الكبيرة ، أو فى حضرة الغرباء ، أو عند مقابلة الأصدقاء العارضة فحسب ، بل فى العلاقات العادية ، فعند ما يعطس الرجل يقول : الحمد لله ، فيقول كل من الحاضرين حينئذ ما عدا الخدم : يرحمكم الله ؛ فيرد عليهم : يهدينا ويهديكم الله ، أو بعبارة مماثلة . وإذا تثاءب يضع ظهر يسراه على فمه ، ثم يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ ولا يقال له شيء فى هذه الحالة ، لأن تجنب ذلك أجدر ، إذ المعتقد أن الشيطان يقفز إلى فم المتثائب . والعادة أن يستغفر الله من يخالف قواعد الآداب بدلاً من الاعتذار للحاضرين. وهناك عدة عبارات تقال بعد الحلاقة أو الاستحمام أو الوضوء أو الصلاة ، أو أى فعل يستحق الثواب ، أو عند القيام من النوم أو عند ما تُشترى ملابس جديدة أو تُلبس ، وفى عدة مناسبات أخرى ، ولتلك العبارات أجوبة خاصة

والقاعدة أن يكرم المسلمون عنهم يداً وقدماً ، فيستعملون اليد اليمنى للأغراض الجليلة واليسرى للأعمال التى تعتبر على رغم ضرورتها حقيرة ، ويلبسون الحذاء الأيمن ويخلعونه قبل الأيسر ، ويخطون عتبة الباب بالقدم اليمنى قبل اليسرى

ويجامل المصريون بعضهم بعضاً إلى أقصى حد . ولتحيتهم وسلوكهم العام رقة ووقار خاصان ومهارة سلسلة تبدو أنها فى طبيعتهم للاحظها فى الفلاحين أيضاً . ويتفاخر أهل المدن من الطبقتين الوسطى والعليا بحسن الأدب ورشاقة المنهج وقوة الذكاء وطلاقة اللسان ؛ إلا أنهم ليسوا أقل خلابة فى أحاديثهم من مواطنيهم الأقل تربية . ويمتاز المصرى على اختلاف طبقاته بالبشاشة والأنس . ومن المألوف أن ترى غريبين يتحدثان بحرية كما لو كانا صديقين قديمين فى أى مكان ، ويقدم أحدهما شبكه إلى الآخر . وليس من غير المعتاد ولا من سوء الأدب أن يستفسر الغريب فى أول مقابلة عرضية عن اسم الآخر وصناعته أو تجارته ومسكنه . وكثيراً ما تنشأ فى مثل هذه المناسبات صداقة دائمة بينهما[1] . وقلما يسمع فى مجتمعات الطبقتين العليا والوسطى ما يمس شعور الحاضرين ؛ ولا يجرؤ الخليع مهما كانت خلابته أن ينطق أى عبارة يقصدها الهزؤ . ومع ذلك فأغلب الناس من جميع الطبقات هم خلماء فى أحاديثهم ويحبون الدعابة إلى أقصى حد . وحديث المصريين مؤثر حار ، ولكن أفراحهم تكون أبداً بلا جلبة تقريباً . وقلما يستسلمون للضحك العالى وإنما يعبرون عن سرورهم بالابتسام أو الهتاف

(يتبع) عدلى طاهر نور

(١) وكثيراً ما يتخاطب الناس بألفاظ القرابة مثل الأب والابن والعم وابن العم والأخ والأخت والأم واليف والخالة وبنت الخالة الخ